الفصل السابع والعشرون

فيه كتاب أساس المريدين

قال بعض العلماء: الخلق محجوبون بثلاث: حب الدرهم، وطلب الرياسة، وطاعة النساء. وقال بعض العارفين: الذى قطع العبادَ عن الله عزّ وجلّ ثلاثةُ أشياء: قلة الصدق فى الإرادة، والجهل بالطريق، ونطق علماء السوء بالهوى. وقال بعض علمائنا: إذا كان المطلوب محجوبًا، والدليل مفقودًا، والاختلاف موجودًا، لم ينكشف الحق، وإذا لم ينكشف الحق تحيَّر المريد.

واعلم أن المريد لا بدّ له من خصال سبع: الصدق فى الإرادة؛ وعلامته إعداد العدَّة. ولا بدّ له من التسبب إلى الطاعة؛ وعلامة ذلك هجر قرناء السوء. ولا بدّ له من المعرفة بحال نفسه؛ وعلامةُ ذلك استكشاف آفات النفس. ولا بدّ له من مجالسة عالم بالله؛ وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه. ولا بد له من توبة نصوح؛ فبذلك يجد حلاوة الطاعة، ويثبت على المداومة، وعلامة التوبة: قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولا بدّ له من طعمة حلال لا يذمّها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع. ولا بدّ له من قرين صالح يؤازره على ذلك؛ وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان.

فهذه الخصال السبع قوت الإرادة، لا قوام لها إلا بها. ويستعين على هذه السّبع بأربع هنّ أساس بنيانه، وبها قوة أركانه: أوّلها الجوع؛ ثم السهر؛ ثم الصمت؛ ثم الخَلْوة. فهذه الأربع سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها، بهن يضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها. ولكل واحدة من الأربع صنعة حسنة فى القلب.

فأما الجوع: فإنه ينقص من دم القلب فيبيضّ، وفى بياضه نوره، ويذيب شحم

الفؤاد، وفى ذوبه رقته، ورقته مفتاح كل خير؛ لأن فى القسوة مفتاحَ كلِّ شرٍّ. وإذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ منه؛ لأن دم القلب مكانه. فإذا رقّ القلبُ ضعُف سلطان العدوّ منه؛ لأن فى غلظ القلب سلطانه.

والفلاسفة يقولون: إن النفس كلية الدم. وحجتهم فى ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه مع روحه. والعلماء منهم قالوا: الدم هو مكان النفس. وهذا هو الصحيح؛ لأنه مواطئ لما فى التوراة، سمعتُ أن فى التوراة مكتوبًا: يا موسى لا تأكل العروق فإنها مأوى كل نفس. وهذا مصدّق للحديث الذى رُوى: «إن الشيطانَ يجرى من ابن آدمَ مجرى الدم، فضيّقُوا مجاريَه بالجُوع والعطش».

وقد عبّر علماءُ الكوفة عن الدم بالنفس، فقالوا: إذا مات فى الماء من الهوام ما ليس له نفس سائلة لم يَنْجَسْ. يعنون الخنافسَ والصراصر والعناكب.

ففى الجوع نقصانُ الدم، ونقصانه ضيق مسلك العدوّ، وضعف مسكن النفس، لسقوط مكانها. وفى خبر عن عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين، جوّعوا بطونكم، وعطّشوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكُم ترى الله عزّ وجلّ». يعنى بحقيقة الزهد، وصفاءِ القلب.

فالجوع مفتاحُ الزهد وبابُ الآخرة، وفيه ذلُّ النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفى ذلك حياة القلب وصلاحه. وأقل ما فى الجوع إيثارُ الصمت، وفى الصمت السّلامة، وهى غاية للعقلاء.

وقال سهل رحمه الله: اجتمع الخيرُ كلّه فى هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدالُ أبدالاً: إخماصُ البطون، والصمت، والسّهر، والاعتزال عن الناس. وقال: من لم يصبر على الجوع والضرّ لم يتحقق بهذا الأمر.

وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ما تحوّل الصدّيقون صديقين إلا بالجوع والسّهر. فإنه ينير القلبَ ويجلوه، وفى استنارته معاينةُ الغيب، وفى جلائه صفاءُ اليقين. فتدخل الاستنارة والجلاء على البياض والرّقّة، فيصير القلب كأنه كوكب

دريٌّ في مرآة مجلوَّة، ويشهد الغيبَ بالغيب؛ فيزهد في الفاني لما عاين من الباقي، وتقل رغبته في عاجل حظوظ هواه لما أبصر من وبال العقاب، ويرغب في الطاعات لمشاهدة الآخرة ورفيع الدرجات، فيصير الآجلُ عاجلاً، ويكون العاجل غائبًا، ويصير الغائبُ حاضرًا، والحاضرُ آفلاً، يطلبه ويرغب فيه فلا يحب الآفل ولا يبتغيه، ويطلب الآجل ويرغب فيه، وينكشف له عوار الدار، ويظهر له بواطن الأسرار، ويزول عنه كامن الاغترار. فهناك صار العبد مؤمنًا حقًّا، بوصف حارثة الأنصاري، إذ يقول: عزفت نفسي عن الدنيا، وكأني أنظر إلى عرش ربي تعالى بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون.

وكذلك وصف رسول الله ﷺ قلبَ المؤمن في قوله: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن». وانجرادُ القلب بالزهد في الدنيا وتجرده من الهوى، وسراجه الذي يزهر فيه هو نور اليقين، به يبصر الغيب.

وقال بعض علمائنا: من سهر أربعين ليلة خالصًا كُوشف بملكوت السماء. وكان يقول: اجتمع الخير كله في أربع، ذكر منها سهر الليل.

واعلم أن نوم العلماء عن غلبة المنام بعد طول السهر بالقيام مكاشفة لهم وشهود، وتقريب لهم منه وورود.

ومن صفة الأبدال: أن يكون أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة. ومَنْ سَهِرَ بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار، فإنّه أسهره بالليل في خدمته.

ودخل الحسن ذات يوم إلى السوق، فسمع لغطهم وكثرة كلامهم، فقال: أظنّ ليل هؤلاء ليل سوء، ما يقيلون.

وفي الخبر: «قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل، واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار». وقد قيل في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] قيل: بالصوم على قيام الليل. وقيل: استعينوا بالجوع وصلاة الليل على مجاهدة النفس. وقيل: استعينوا بالصبر والصلاة على اجتناب النهي.

وأما الصمتُ: فإنه يُلقح العقلَ، ويُعلّم الورع، ويَجلب التقوى، ويجعل الله

عزّ وجلّ به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيح مخرجًا، ويوفقه بإيثار الصّمت للقول السديد والعمل الرشيد.

وقد قال بعض السلف: تعلمتُ الصمت بحصاة جعلتها فى فمى ثلاثين سنة، كنتُ إذا هممتُ بالكلمة تلجلج بها لسانى، فأسكت. وقال بعضهم: جعلتُ على نفسى بكل كلمة أتكلمُ بها فيما لا يعنينى صلاةَ ركعتين، فسهل ذلك علىّ، فجعلتُ على نفسى بكل كلمة صوم يوم، فسهل علىّ، فلم أنْتهِ حتى جعلتُ على نفسى بكل كلمة أن أتصدق بدرهم، فصعب ذلك فانتهيتُ.

وقال عقبة بن عامر: «يا رسول الله، فيم النجاة؟ قال: أمسكْ عليك لسانَك، ولْيَسعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك».

وقال ﷺ فى الخبر الجامع المختصر: «مَنْ سرَّه أن يسلم فليلزم الصمت». وأوصى رسولُ الله ﷺ معاذًا بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال فى آخر وصيته: «ألاَ أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله؟ هذا، وأومأ بيده إلى لسانه. فقلت: يا رسول الله، وإنَّا لَمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم».

إنك ما سكتَّ فإنك سالم، فإذا تكلمتَ فإنما هو لك أو عليك.

وقال عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: «قلت: يا رسول الله، أوصنى بشىء فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. فقال: قل: ربى الله ثم استقم. قال: قلت: فما أتقى بعد ذلك؟ ـ وفى لفظ آخر: «فأخبرنى بأضر شىء علىّ» ـ فقال: هذا، وأومأ إلى لسانِه».

وفى الخبر: «لا يتقى العبدُ ربَّه تعالى حقَّ تقاته حتى يَخْزُنَ[1] من لسانِه».

وفى الحديث: «لا يصلح العبدُ حتى يستقيم قلبُه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

وقال ابن مسعود: ليس شىء أحقّ بطول سَجْن من لسان. وقال بعض السلف:

(١) خزن الشىء. أحرزه وجعله فى خزانة.

فتشتُ الورَعَ، فما وجدتُ فى شىء أقل منه فى اللسان.

وقال بعض العلماء: ما استقام لسانُ عبد إلا عرفتَ الصلاحَ فى سائر عمله، وما اختلف لسانه إلا عرفتَ الفسادَ فى سائر عمله.

وقال بعض الحكماء: إذا كثر العقل قلّ الكلام، وإذا قلّ العقل كثر الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: علماءُ أهل الكلام زنادقة. وقال بعض هذه الطائفة: من تكلم فأحسن كثيرٌ، ولكن الشأنَ فيمن يُحسن أن يسكت.

وقال ذو النون المصرى: الخوف يقلق، والحياء يسكت.

وقال بعض العارفين: قد جُزِّئ العلم على قسمين: نصفه سكوت، ونصفه أن تدرى أين تضعه.

وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلمون إلا الصمت والورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام.

وقال الحسن عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا يُصَبْنَ إلا بعُجب: الصمت؛ وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله عزّ وجلّ، وقلة الشىء».

وقال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال: يا بنى، الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما مضى كان أكثر.

وقيل: كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه. وقد قيل: من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه.

وقيل لبعض العلماء: فلان أعلم أم فلان؟ فقال: فلان أعلم، وفلان أكثر كلامًا، ففرق بين العلم والكلام.

وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته: دُلّنا على رجل نجلس إليه بعدك. فقال لهم: فلان. فذكر لهم رجلاً صموتًا متعبدًا، لا يُعرف بكثير علم. فقيل له: إنّ فلانًا ليس عنده من العلم ما يجيب عن كل ما نسأله عنه من العلم. فقال: قد علمتُ، ولكن عنده من الورع ما لا يتكلم بما لا يعلم.

وكان الأعمش يقول: من الكلام كلامٌ جوابُه السكوت. وقال بعض السلف: الصمت زين العالم وستر الجاهل. وقال غيره: الصمت جوابه. وفى الخبر: «الصمتُ زين للعالم وشين الجاهل». وقال بعضهم: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم؛ إن تكلم تكلم بعِلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: انظروا إليه، سكوته أشدّ علىّ من كلامه.

وقال بعض السلف: تعلّم الصمتَ كما تتعلّم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك. ولك فى الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. وقال بعض العلماء: تعلَّم لا أدرى، ولا تتعلم أدرى، فإن قلتَ لا أدرى علَّموك حتى تدرى، وإن قلت أدرى سألوك حتى لا تدرى. وقد قال العلماء: إذا أخطأ العالِمُ قولَ أدرى أُصيبت مقاتله.

وقال عيسى عليه السلام: «الخيرُ كلّه فى ثلاثة: فى الصمت، والكلام، والنظر. فمن لم يكن صمته تفكرًا فهو فى سهو، ومن لم يكن كلامه ذكرًا فهو لغو، ومن لم يكن نظره عبرًا فهو لهو».

وقال بعضهم: يأتى على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم، وأفضل علومهم الصمت. يعنى لفساد الأعمال، ولاشتباه العلم. ويقول أيضًا مع ذلك: وأفضل أحوالهم الجوع؛ لانتشار الحرام وغموض الحلال.

وقال بعض العلماء: الصمت نوم العقل، والنطق يقظته، وكل يقظة تحتاج إلى نوم، وما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقلُه وحضر لُبُّه. وفى وصية ابن عباس مجاهدًا: لا تتكلمنَّ فيما لا يعنيك فإنه أسلم ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلّم فيما لا يعنيك حتى ترى له موضعًا، فرُبَّ متكلِّم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعَنَت. وقال بعض العلماء: يستبين ورعُ الرجلِ فى منطقه.

وفى الخبر: «مَنْ كثر كلامُه كثُر سقطه، ومن كثر سقطه مات قلبه».

ويقال: إذا قلّ الكلام كثر الصواب. وعن جماعة السلف: إن تسعةَ أعشار السلامة فى الصمت. ويقال: كل كلمة من هَزْل أو مزح أو لغو يُوقَف العبد عليها

خمس مواقف بتوبيخ وتقرير، أوّلها: أن يقال له: لم قلت كلمة كذا، أكانَت فيما يعنيك؟ والثانية: هل نفعتك إذ قلتها؟ والثالثة: هل ضرتك لو لم تقلها؟ والرابعة: ألاَ سكتَّ فربحتَ السلامةَ من عاقبتها؟ والخامسة: هلا جعلت مكانها قولَ سبحانَ الله والحمد لله، فغنمت ثوابها.

ويقال: ما من كلمة إلا ويُنشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل لِمَ؟ والثانى كيف؟ والثالث لمن؟ فإن نجا من الثلاث وإلا طال وقوفه للحساب.

وقال الحسن: لسان المؤمن وراء قلبه، إذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب المنافق على طرف لسانه.

أى كل شىء خطر بقلبه تكلم به، ولا يتوقف، ولا ينثنى.

وفى الخبر: «من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت». وفى الكلام تنميق وزيادة، وفى الصمت سلامة وغنم. وفى موعظة النبى ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله».

والأخبار فى الصّمت وفى جميع ما ذكرناه من المعانى تكثر، ولم نقصد جمعها.

وأما الخَلْوة: فإنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهمَّ بأمر الخالق، وتقوِّى العزمَ على الثبات. إذ فى مخالطة الناس وهَن العزم، وشتات الهم، وضعف النية. والخلوة تقلّ الأفكارَ فى عاجل حظوظ النفس، لفقد مشاهدتها بالأبصار؛ لأنّ العينَ بابُ القلب، ومنها يدخل آفاته، وعندها توجد شهواته ولذاته. وقد قال بعض العلماء: من كثُرتْ لحظاتُه دامَتْ حسراته.

والخلوةُ تجلب أفكار الآخرة، وتجدد الاهتمام بها لما شهد به الإيقان، وتنسى ادّكار العباد، وتواصل ذكر المعبود.

والخلوةُ من أكبر العَوافى؛ وذلك أنه قد جاء فى الحديث: «سلوا اللهَ العافية، فما أُعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية». ثم قد رُوى فى الخبر: «العزلة عن

الناس عافية». فدخل ذلك فى معنى ما ندب إليه من السؤال، وفيما فضل بعد اليقين على جميع الأحوال.

ولا يكون المريدُ صادقًا حتى يجد فى الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد ما لا يجده فى الجماعة. ويجد فى السّر من النشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية. ويكون أنسه فى الوحدة، وروحه فى الخلوة، وأحسن أعماله فى السر.

ومَثَلُ الخلوةِ فى الأحوال من المخالطة للناس مَثَلُ الخوفِ فى المقامات من المحبة. الخوفُ يصلح لجميع العابدين، والمحبة مزيد لأهلها المخصوصين، كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين.

والأنس بالناس مزيد لأهله، خاصة من الأئمة العالمين، إلا أن الخلوة تحتاج إلى عقل آخر، والوحدة والانفراد يحتاجان إلى إيمان ثان. وقد روينا عن سفيان الثورى، وعن بِشر بن الحارث: إذا استوحشتَ من الوحدة، واستأنستَ بالخلق، لم آمن عليك الرياء.

وكان أبو محمد يقول: اجتمع الخيرُ كلّه فى هذه الخصال الأربع. وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل.

وحُدثتُ عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال: مخالطةُ الوليِّ للناس ذلٌّ، وتفرّده عزٌّ، وقَلَّ ما رأيتُ وليًا لله عزّ وجلّ إلا منفردًا. وقال بعض العارفين: الأنس بالوحدة علامةُ وجود الطريق.

فمن علامةِ صدق الإرادة بعد صحةِ التوبة وقوةِ العزم على الاستقامة إيثارُ هذه الأربع التى ذكرناها على أضدادها، ووجودُ القلبِ عندها، وانشراحُ الصدر بها، وحسنُ الخلقِ معها؛ لأنّ ضدّها هو أبواب الدنيا، ومفاتيح الغفلة، وطرقات الهوى.

ومن ذلك: فإن فى الشبع قسوة القلب وظلمته، وفى ذلك قوّة صفات النفس، وانتشار حظوظها. وفى قوّتها وبسطها ضعفُ الإيمان، وخمود أنواره. وفى ضعف النفس وخمودِ طبعها قوةُ الإيمان واتساعُ شعاعِ أنوار اليقين؛ وفى ذلك

قرب العبد من القريب، ومجالسته للحبيب.

والشبعُ مفتاح الرغبة فى الدنيا. وقال بعض الصحابة: أول بدعةٍ حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إذ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم شهواتهم. وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجوعون من غير إعواز»، أى مختارين لذلك. وقال ابن عمر: ما شبعتُ منذ قُتل عثمان رضى الله عنه. وقال هذا فى زمن الحجاج.

وفى حديث أبى جحيفة، لما تجشأ عند رسول الله ﷺ فقال له: «اكفف عنا جُشاءك؛ فإن أطولكم شبعًا فى الدنيا أكثركم جوعًا فى الآخرة». فقال: والله ما تمليتُ طعامًا من يومئذ إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمنى الله عزّ وجلّ فيما بقى.

ويستحب على هذا أن يكون جوعُ العبد فى الدنيا أكثرَ من شبعه، وهى علامة الأولياء. فمن كان له أكلةٌ بين جوعتين إلى منتهاهما، فجوعه حينئذ أكثر من شبعه. ومن كان له بعد جوعةٍ بالغةٍ شبعةٌ متوسطة، فقد اعتدل؛ شبعه، وأكلُه، وجُوعه. ومن أكل فى يوم مرتين، أو أكل من غير جوع ثم شبع، فشبعه أكثر من جوعه، وهذا مكروه، وكل من أكل بعد الجوع، ورفع يدَه قبل الشبع، فجوعه أكثر من شبعه، وهذا أوسط الأحوال.

وقال هشام عن الحسن: والله لقد أدركتُ أقوامًا كانوا لا يشبعون، يأكل أحدُهم حتى إذا ردّ نفسه أمسك، ذائبًا ناحلاً مقبلاً على طيه، يعيش عمره كله ما طُوى له ثوب قط، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط.

وقال جعفر بن حيان عن الحسن: المؤمنُ لا يأكل فى كلٍّ بطنه، ولا تزال وصيته تحت جنبه.

وروينا عن الثورى: خصلتان تقسّيان القلب: طول الشبع، وكثرة الكلام. وروينا عن مكحول: خصال ثلاثٌ يحبها الله عزّ وجلّ، وثلاث يبغضها الله عزّ وجلّ. فأما اللاتى يحبها: فقلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام. وأما اللاتى

يبغضها: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرةُ النوم.

فأما النوم: فإن فى مداومته طول الغفلة، وقلة العقل، ونقصان الفطنة، وسهوة القلب. وفى هذه الأشياء الفوت، وفى الفوت الحسرة بعد الموت.

وروينا عن النبى ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود لابنها: يا بنى، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم تترك العبد فقيرًا يوم القيامة».

وقيل: كان شبان يتعبدون فى بنى إسرائيل، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.

وكان بعض السلف يقول: أدنى أحوال المؤمن: الأكل والنوم، وأفضل أحوال المنافق: الأكل والنوم. وقال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء: صف لى شيئًا أستعمله حتى أكون أنام النهار. فقال: يا هذا ما أضعف عقلك! إن نصف عمرك نوم، والنوم من الموت، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نومًا، وربعه حياة؟ قال: وكيف؟ قال: أنت إذا عشت أربعين سنة، فإنما هى عشرون سنة، أفتريد أن تجعلها عشر سنين؟

وأما كثرة الكلام: فإن فيه قلةَ الورع، وعدم التقوى، وطولَ الحساب، وكثرةَ المطالبين، وتعلق المظلومين، وكثرةَ الأشهاد من الأملاك الكاتبين، ودوام الإعراض من الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، فيه الكَذِب، والغيبة، والنّميمة، والبُهتان، وفيه شهادة الزور، وفيه قذف المحصن، والافتراء على الله تعالى والإيمان، وفيه القول فيما لا يعنى، والخوض فيما لا ينفع. وقد جاء فى الخبر: «أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه، وأكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا فيما لا يعنيه».

وفى اللسان: التزيُّن، والتصنُّع للخلق، والتحريف، والإحالة لمعانى الصدق. وفيه المداهنة، والمواراة، والتملّق لأهل الأهواء.

وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبه، وفى شتاته تفريق همّه، وفى تفريق

همه سقوطه من مقام المقربين. وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تمارينّ حليمًا ولا سفيهًا، فإن الحليم يَقْليك، وإن السفيه يؤذيك.

وفى الخبر: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يُلْقى لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض». وفى لفظ آخر: «ليتكلم بها فيهوى فى جهنم سبعين خريفًا».

وقال لقمان لابنه: لأن تعيش أخرس، يسيل لعابك على صدرك، خير لك من أن تنطق فى نادى القوم بما لا يعنيك.

وفى خبر: «من افتتح بكلمة سوء، ثم خاض الناس فى مثلها، كان عليه مثل أوزارهم». وفى الخبر: «لا يأتى بخبر السوء إلا رجل السوء». وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم أنه كان إذا صحبه رجل، فجاء بخبر سوء فارقه.

وروينا فى الحديث: «من حدّث بما سمعت أذناه ورأت عيناه، كتبه الله تعالى من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا».

وروينا عن على رضى الله عنه: مذيعُ الفاحشة فى الناس كفاعلها.

وفى الخبر: «إنَّ بعض فقراء أهل الصفَّة استُشهد فى سبيل الله عزّ وجلّ، فقالت أمه: هنيئًا لك فى الجنة، جاهدت فى سبيل الله، وهاجرت إلى رسول الله ﷺ، وقُتلت شهيدًا، طوبى لك الجنة. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنة؟ فلعله كان يتكلم فيما لا ينفعه، أو يبخل بما لا يضره». وفى لفظ آخر: «لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه».

وفى الخبر: إن بعض الصحابة قال لرجل: إنه لنؤوم. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتم أخاكم، سلوه أن يستغفر لكم». وفى خبر آخر: إنهم قالوا: ما أعجز فلانًا! فقال ﷺ: «أكلتموه».

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: قالت لامرأة: ما أطول ذيلها، وفى لفظ آخر قالت: إنها لقصيرة. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتِها». وفى خبر آخر: إن رسول الله ﷺ قال لها: «لقد تكلمتِ بكلمة لو مُزج بها ماءُ البحر لامتزج». فهذا من وصف المبالغة فى الشدة.

وفى الخبر الجامع لهذه المعانى فى وصف الغيبة، ما روى عن رسول الله ﷺ: «من قال فى أخيه ما فيه فقد اغتابه».

وفى حديث أبان عن أنس عن رسول الله ﷺ أشد من ذلك أنه قال: «الغيبة ما إن قلت فى أخيك لم تزكّه به». فهذا نهاية القول من الشدة، وغاية التشديد فى الغيبة.

والغيبة: اسم لغوى ، معناه شرعى ، مشتق من غَيْب الإنسان . وفسرها رسول الله ﷺ: أنها أن يقول العبد فى أخيه ما فيه. وعظّمها بقوله: «هى أشدّ من الزنا». فمتى قال العبد لأخيه فى غيبته ما يعلمه يقينًا فيه، مما لا يقوله بمحضره، أو مما ينقصه به، أو لا يزكّيه فيه، فقد اغتابه. فلو لم يكن فى الصّمت إلا السّلامة من الغيبة لكان ذلك غنيمة موفورة. كيف، وقد رُوى عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ثلاثة: أمرٌ بمعروف، أو نهىٌ عن منكر، أو ذِكْرُ الله عزّ وجلّ».

وأما مخالطةُ الناس فإنّها تضعف العزم الذى كان قويًا فى أعمال البر، وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة، لقلة المتعاونين على البر والتقوى، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان. وفى مخالطة الناس قوّة الطلب، والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من إقبال أهلها عليه. وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر إلى أهل الغفلة، والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة، ونقصان حلاوة المعاملة، وذهاب نور العلم، وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة، والنظر إلى الموتى من أبناء الدنيا. كما رُوى عن عيسى عليه السلام: «لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قيل: ومن الموتى؟ قال: المحبّون للدنيا الراغبون فيها».

وقد كان الحسن يقول فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:٢٢] قال: الفقراء والأغنياء. كأنّ الفقراء حيوا بذكر الله عزّ وجلّ، والأغنياء ماتوا على الدنيا.

وأعظم ما فى مخالطة الناس، ومجالسة أهل البطالة وذوى غفلتهم: ضعفُ

اليقين برؤيتهم. وأضر ما ابتُلى به العبد، وأعمله فى هلاكه، وأشدّه لحجبه وإبعاده: ضعفُ يقينه بما وُعد به بالغيب، وتُوعِّد عليه فى الشهادة. وهذا أخوف ما خافه رسول الله ﷺ على أمته، فيما روينا عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعفُ اليقين»؛ وذلك أن ضعف اليقين هو أصل الرغبة فى الدنيا، والحرص على التكاثر منها، والتضرّع إلى أبنائها والطمع فيهم.

كما قال ابن مسعود: إنّ الرجل ليخرج من بيته ومعه دِينه، فيرجع إلى بيته وما معه من دينه شىء؛ يَلْقَى هذا فيقول: إنك لذيت وذيت، ويَلْقى هذا فيقول: أنت كيت وكيت، ولعله لا يُخلى منهم بشىء، ويرجع إلى بيته وقد أسخط الله عزّ وجلّ.

وقد قال بعض التابعين: إن العبد ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير، فيخرج إلى الناس فيَحلُّون ما عَقَدَهُ عقدةً عقدةً، حتى يرجع، وقد انحلّت العُقَدُ كلّها.

وقوّة اليقينِ أصلُ كلّ عمل صالح؛ لأن فى قوّة يقينه سرعةَ منقلبه، وطولَ مثواه فى دار إقامته، وإيثارَ التقلل من الفانى وتقديمَه للباقى، وضعفَ حرصه، وقلةَ طلبه، وفَقْدَ طمعه، وفراغَهُ من الاشتغال بعاجله، وإقبالَه وشغلَه بما نُدب إليه من مستقره. وفى جميع ذلك إخلاصُه فى أعماله، وحقيقة زهده فى تصرف أحواله، وفى قصر أمله، وتحسين عمله. ألم تسمع إلى وصف من أخبر الله عزّ وجلّ عنه بالتكاثر الذى ألهاه، حتى زار برزخَه ومثواه، كيف تهدّده حتى يعلم يقينًا، وتوعّده إذا رأى آخرته عيانًا، فقال سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أى شغلكم الجمع للمكاثرة حتى حللتم القبور. ثم قال: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو، الذى هو مقتضى الشك، إذ هو ضد اليقين. فاشتغلتم بالآخرة عن التكاثر من الدنيا، كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب، لعدم علم اليقين، كما قال: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] بعد أن قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ

يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، ثم توعدهم على ذلك مرتين، وتهددهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل. وقيل: هو الجمع والمنع.

فاعلم أنّ الذى قطَع العبادَ عن التوبة، وعرّج بالتائبين عن الاستقامة، ثلاثةُ أشياء: الكسبُ، والإنفاقُ، والجمع. وهذه الأسباب متعلقة بالخلق، وموجودة بوجودهم، ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخلق، ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاث.

وقال الثورى: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقد قال بعض هذه الطائفة من الصّالحين: قلتُ لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى التحقيق؟ وقال مرة: قلتُ له: دلنى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى، فى كل وقت مع الدوام. فقال: لا تنظر إلى الخلق، فإنّ النظرَ إليهم ظلمة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. قال: فلا تسمع كلامهم، فإنّ كلامهم قسوة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. [قال:] فلا تعاملهم، فإن معاملتَهُم وَحشة. قلت: أنا بين أظهرهم، لا بدّ من معاملتهم. قال: فلا تسكُن إليهم، فإن السكونَ إليهم هلَكة. قلت: هذه العلّة. فقال: يا هذا، أتنظر إلى الغافلين، وتسمع كلامَ الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله عزّ وجلّ على الدوام؟ هذا ما لا يكون.

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد، وفى فضل الصمت، وفى جميع ما ذكرناه من الجوع والسهر، ومن مكابدة الليل، ما يكثر جمعه فيما نبهنا عليه، وأشرنا إليه، بلاغٌ وغنيةٌ لمن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولمن أريد بالمعاملة والمتاجرة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

* * *